وقد تكفي ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ معونة تقييدات وتحديدات، حيث المؤمن لا يستطيب بطبيعة الإيمان مال غيره، أو محاصيل الظلم، أو الإسراف والتبذير، وهناك بجنبه وفي مرآه ومنظره بطون غرثى لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القُرَص.

فـ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ هنا هي ما تَسْتَطيبُها الأنفس المؤمنة نفسياً بجنب ما تستطيبها جسدياً، كما أنها هناك ما تستطيبها الأنفس الإنسانية، وهنا ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ في ميزان الاقتصاد الإسلامي، والأخلاق والعواطف الإسلامية السامية، فهذه أضيق دائرة من ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ في خطاب الناس، قضية أن الإيمان قيد الفتك، فالمؤمن يفتش عن طيب أُكُلِه وحِلِّه وأن يكون بمرضاة ربه، فيحتاط عن المخلوط أو المشتبه بالحرام.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾:

حصرٌ نسبيٌ في نطاق الأنعام التي حرَّم المشركون أقساماً منها افتراءً على الله كما قال الله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقد تحمّل ذلك الحصر ثلاث أخرى، فاثنتان من الأربع مدنيتان، هذه وآية المائدة (٣) وأخريان مكيتان هما آية الأنعام (١٤٥) والنحل (١١٥) وتجد القول الفصل فيها في آية النحل والمائدة.

ومجمل القول فيها لا سيّما آية الأنعام - وهي نص في الحصر - أنها

= هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك!.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

تنفي الحرمة في نطاق الأنعام إلّا ما يتلى عليكم، اللّهم إلّا لحم الخنزير خارجاً عن الأنعام لتعوُّد أكله بين المشركين.

ثم ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ضابطة لحلِّ المحرمات، شرطَ أنه ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ والباغي هو الطالب لا عن اعتدال، فهو الظالم في هذه الورطة، أن يكون في معصية الله فاضطر إلى أكل شيء من ذلك، والعادي يشمل المتجاوز عن حدّ الاضطرار إذاً فلا اضطرار، والعدْو إلى حالة الاضطرار، فهو إذاً اضطرار باختيار، فمن كان له صنع لخلق جوِ الاضطرار، أم كان ظالماً فيه، فهو آثم رغم اضطراره، مهما وجب عليه اقتراف الحرام حفاظاً على الأهم وهو نفسه[1] وعلّ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حالان عن الاضطرار والأكل معاً، ألا يكون الاضطرار ببغي أو عدو، أم في حالهما، وألّا يأكل بغياً وعدواً، بغياً على صاحب المال، وعدواً عن قدر الاضطرار.

والقول الفصل في كلّ أطراف الآية وزيادة شاملة تأتي في آية المائدة إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾:

(١) نور الثقلين ١: ١٥٥ في الفقيه في رواية محمد بن عمرو بن سعيد رفعه أن امرأة أتت عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إني فجرت فأقم عليّ الحدَّ فأمر برجمها وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً فقال: سلها كيف فجرت؟ فسألها فقالت: كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد فرفعت لي خيمة فأتيتها فأصبت فيها رجلاً أعرابياً فسألته ماء فأبى أن يسقيني إلّا أن أكون أمكنه من نفسي فولّيت منه هاربة فاشتد بي العطش حتى غارت عيناي وذهب لساني فلما بلغ مني العطش أتيته فسقاني ووقع عليّ فقال علي عليه السلام: هذه التي قال الله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البَقَرَة: ١٧٣] هذه غير باغية ولا عادية فخلى سبيلها فقال عمر: لولا علي لهلك عمر، وفيه عن التهذيب عن سماعة قال سألته عن الرجل يكون في عينه الماء - إلى قوله - فقال: وليس شيء مما حرّم الله ألا وقد أحله لمن اضطر إليه.
نور الثقلين ١: ١٥٦ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال عليه السلام: . . .

قدَّمنا شطراً من الكلام حول الكتمان في آيته الأولى، ثم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو تطلُّب ثمن عما يكتمون، وكل ثمن بديلَ ذلك الكتمان قليلٌ مهما كان مِلءَ الأرض ذهباً، فكما أن كلَّ شيء أمام الله ضئيل، كذلك كلّ ثمن قبال ما أنزل الله قليل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعيدون عن كلِّ هدىً، المتورطون في كلِّ ردى ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ حيث الأكل المحرم هو يوم الدنيا نار ولكنها اليوم خامدة، ثم يوم القيامة تضطرم: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] - ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2] ولماذا ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ وليس الأكل إلّا بالأفواه إلى البطون؟ علّه لأن فاعلية البطون للمأكول هي أصل الأكل وغايته، فقد يأكل بفمه ثم يرجع دون أن ينتقل إلى بطنه، أو ينتقل ولكنه يرجع كما أكل من فمه أم سواه، إذاً فـ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ تحديد للأكل والمأكول استقراراً في بطونهم، مع أنه أفظع سماعاً وأشدّ إيقاعاً!.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يكلم المؤمنين، والمعني هنا هو تكليم الرأفة والعناية: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[3] دون تكليم التنديد والنكاية كما ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[4].

وأما ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[5] فخاصة بيوم الدنيا، فقد يُكلِّم عباده

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٥١.

المؤمنين دون وسيطٍ يوم القيامة نظراً إليهم، ويكلم غيرهم تنديداً بهم دون سماح لهم أن يكلموه.

ثم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ قد تعمُّ النشأتين، وهي في الأخرى تزكية الشفاعة والغفران، وفي الأولى تزكية العقائد والأعمال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الأخرى، وقد حملوه معهم من الأولى.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾:

وهل كانت لهم هُدى ومغفرة حتى يشتروا بهما الضلالة والعذاب؟ أجل وهي هُدى الفطرة والعقلية الإنسانية، ثم وهدى الرسالات الإلهية الحاضرة لديهم، وبالنتيجة كانت لهم أسباب المغفرة حاضرة، ولكنهم ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ تجاهلاً وتغافلاً عن الهدى والمغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ هنا وهي أرواحهم النارية، وبأحرى يوم القرار.

وَيْكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون بديلها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها، فقد كانت الهدى لهم مبذولة في الآفاق وفي أنفسهم فتركوها واعتاضوا بها الضلالة، وكانت المغفرة لهم متاحة فتركوها إلى النار ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: «ما أصبرهم على فعلِ ما يعلمون أنه يصيِّرهم إلى النار».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم من اللعنة والعذاب على هؤلاء ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ﴾: بسبب الحق وغايته ومصاحباً للحق الناصع الدال على وحيه دون أية ريبة، وحاملاً لكلّ حق يحق نزوله للعالمين، وبـ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ

ٱخْتَلَفُواْ فِي﴾ ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ﴾ مع الله ﴿بَعِيدٍ﴾ في الأعماق، وبعيد عن كلِّ آفاق الشقاق، فإنه شقاق مع الله الذي نزل الكتاب، وشقاق مع الرسول الذي أنزل عليه الكتاب، وشقاق - ككل - مع الحق الذي لا يشتهونه، فهم - إذاً - في ثالوث الشقاق، بعيداً بهذه الأبعاد.

وقد يعني ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا بجنب القرآن سائر كتابات السماء، وقد اختلف الكاتمون ما أنزل الله في كل كتاب، لا سيّما في البشارات الخاصة بالرسول محمد ﷺ كما اختلف فيه المشركون و﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ﴾ تشملها جميعاً.

هنا صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة وما أثاروا حوله من جدل، بياناً للحقيقة الكبرى، الحقيقة بالجدل حولها، دون شكليات الشعائر من تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب، كشعارات فاضية عن شعورات، وإنما فائضة بشعورات وواقعيات إيمانية.

فالإيمان الصالح هو نقطة التحول في حياة الإنسان أيّاً كان وإلى أية قبلة اتّجه، إنه - فقط - هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى البلد الأمين، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

فقد تلمح أولى الآيات هنا أن هناك وجوهاً من الناس كانوا يولون وجوههم قبل المشرق والمغرب صلاةً ودعاءً ويحسبون أنه البرُّ - فقط - في حظيرة الإيمان، فتبادر بتعريف البرِّ ابتداءً بالإيمان ثم أهم أعمال الإيمان، دون طقوسٍ جافةٍ خاويةٍ عن الإيمان الحق وحق الإيمان في عشرة كاملة من بنود الإيمان.

١ - ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ٢ - ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، ٣ - ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ٤ - ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ ٥ - ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ٦ - ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ٧ - ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ٨ - ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ٩ - ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ ١٠ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في دعوى الإيمان ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ دون المولِّين وجوههم قِبَلَ المشرق والمغرب، بل المولّون وجوههم - ككلّ - الظاهرة مع الباطنة، وجاه مرضاة الله، ومنها وجوه الأبدان قِبَل القِبْلَة التي يوليهم الله إياها، رمزاً إلى الاتِّجاه - ككلٍّ - إلى الله.

وفي ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ تعريض عريض على اليهود المولِّين وجوههم قِبَلَ المغرب والنصارى المولين وجوههم قبل المشرق، وهم خاوون عن الإيمان بالله واليوم الآخر وسائر العشرة كما يجب، كما وهو تعريض هامشي على المسلمين من الذين يشابهونهم في تلك التولية القاحلة عن حق الإيمان.

أجل وليست ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ في ذلك الخطاب - فقط - وجوه أهل الكتاب، بل والأصل هنا هو وجوه المخاطبين - أصالة - بالقرآن، وهم المؤمنون، مهما كان التنديد الأكثر اتّجاهاً إلى أهل الكتاب، فالخطاب إذاً - كأصل - من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، ثم و«إياك» مندّد به على هامش الخطاب، وعلى أية حال ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ...﴾[1].

هذا، وكما سُئل الرسول ﷺ عن الإيمان فتلاها ثم ثانية فتلاها ثم ثالثة فتلاها وقال: «وإذا عملت حسنة أحبَّها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك»[2] وقال ﷺ: من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) الدر المنثور ١: ١٦٩ - أخرج ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان... وفيه عن القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبي ذر فقال: ما الإيمان فتلا عليه هذه الآية فقال الرجل: ليس عن البِّر سألتك، فقال أبو ذر جاء رجل إلى رسول=

. . وفي هذه العشرة الكاملة من زوايا البرِّ نجد كلَّ الأصول الإيمانية وفروعها الأصيلة، إيماناً بالمبدأ: «الله» وباليوم الآخر:

«المعاد» وما بين المبدأ والمعاد من وسائط الرسالات: «والملائكة» وموادها: «والكتاب» وحملة الرسالات: «النبيين» وهذه خمس تتبنَّى الأصول الإيمانية، ثم خمس أخرى تتبنّى فروعها العملية، من صلات جماعية اعتيادية بين الجماهير: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ومن صلة عبودية بالله تتوسطها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم صلة ذات بعدين بالله وبخلق الله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ . . . وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وترى كيف يكون ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ برّاً مصدراً وهو بارٌّ فاعلاً؟ علّه لأن حامل هذه العشر يجسِّد البر نفسه، إذاً فكأنه نفس البرّ وكما و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1].

= الله ﷺ فسأله عما سألتني فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت فقال له رسول الله ﷺ: ادن فدناه فقال: المؤمن إذا عمل الحسنة سرته رجاء ثوابها وإذا عمل السيئة أحزنته وخاف عقابها.

وفيه أخرج جماعة عن عمر بن الخطاب أنهم بينا هم جلوس عند النبي ﷺ جاء رجل يمشي حسن الشعر عليه ثياب بياض فنظر القوم بعضهم إلى بعض ما نعرف هذا وما هذا بصاحب سفر ثم قال: يا رسول الله ﷺ آتيك؟ قال: نعم، فجاء فوضع ركبتيه عند ركبتيه ويديه على فخذيه فقال: ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، قال: فما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والجنة والنار والبعث بعد الموت والقدر كله، قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعمل لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: نعم، قال: صدقت، قال يا محمد! متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فما أشراطها؟ قال: إذا العراة الحفاة العالة رعاء الشاة تطاولوا في البنيان وولدت الإماء أربابهن، ثم قال رسول الله ﷺ: عليّ بالرجل فطلبوه فلم يروا شيئاً فمكث يومين أو ثلاثة أيام ثم قال: يا بن الخطاب أتدري من السائل عن كذا وكذا! قال: الله ورسوله أعلم، قال: ذاك جبرئيل جاءكم ليعلمكم دينكم أقول وأخرج مثله البزار عن أنس، وابن مردويه عن أبي هريرة وأبي ذر، عنه ﷺ ولكن ليس فيها أشراط الساعة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

فالبرُّ عقيدياً وإيمانياً فعملياً يأتي بسائر البرِّ كتولّي الوجوه قبل القِبْلة التي يرضاها الله ولا عكس إلّا لمن آمن حقاً.

إذاً فليس سلب البرِّ عن تولية الوجوه سلباً مطلقاً لأنها أيضاً من طقوس البر، وإنما هو سَلْبٌ لأصالة البرِّ عنها، والتولية حسب الشرعة هي فرعه.

إذاً فالإقبال على القشور المصلحية تغافلاً عن الألباب ليس من البرِّ، كما الإقبال على الألباب تغافلاً عن القشور المأمور بها ليس كلَّ البرّ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ جامعاً بين اللباب والقشور قضية برّ الإيمان والإيمان البر.

هنا ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تعني حبَّ المال إلى حبّ الله وحبّ إيتاء المال جمعاً بين المراجع الثلاثة، مهما كان المال أقرب لفظاً، فإن الله هو أقرب معنى وبينهما الإيتاء فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إذاً لها تعلقات ثلاث أدبياً ومعنوياً، : «آتى المال على حبِّ الله» و«آتى المال على حبِّ المال وعلى حب إيتائه» إذ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] وكما «قيل يا رسول الله ﷺ ما آتى المال على حبه؟ فكلنا نحبه! قال رسول الله ﷺ: تؤتيه حين تؤتيه ونفسك تحدثك بطول العمر والفقر»[2].

ودرجة عليا من ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أن تكون عنده أموال يفضّلُ بعضها على بعض، كما ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[3] إذ كان مفضّلاً على سواه مما كان عندهم، وأما الإنفاق من رذيل المال أم في رذيل الحال

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) الدر المنثور ١: ١٧١ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن المطّلب أنه قيل . . . وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا لفلان كذا إلّا وقد كان لفلان.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٨.

«كالذي يُنفق أو يتصدّق عند الموت فمثله مثل الذي يهدي إذا شبع»[١].

إذاً فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ لها درجات، ثم ما لا يحبه، ثم ما يتردَّله، والآية تخص الإنفاق بدرجات الحب، حب المال وحب إيتاء المال على حب الله.

ثم «الفقير هو هدية الله قَبِل ذلك أو ترك»[٢] فـ«ردوا السائل ولو بظلف محترق»[٣].

وهنا المؤتَون المال على حبِّه ستة حسب ترتيب الاستحقاق والحاجة، يتقدمهم ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم الأقرب إليك نسباً فالأقرب، من الوالدين والأولاد، وطبقات القربى هنا هم كطبقات الميراث لأنها أصدق الطبقات إذ قرّرها الله تعالى[٤].

ثم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ المنقطعين عمن يعولهم، وأدنى يتيم هو اللطيم المنقطع عن أبويه، ثم اليتيم المنقطع عن أبيه، ثم الفطيم المنقطع عن أمه، وعلّ الأخير خارج عن اليتيم مهما كان له يُتم، أم هو بعد الأولين، فدوره هو الدور الأخير.

والمساكين هم من أسكنهم العدم، وهي تعم الفقراء الذين أَفْقَرَهمُ العدم، فإنهم أسوءُ حالاً من المساكين، كما ويقدَّمون عليهم حين يذكران

(١) المصدر أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل الذي يُنفق أو يتصدّق عند الموت مثل الذي يهدي إذا شبع.

(٢) المصدر أخرج ابن شاهين وابن النجار في تاريخه عن أُبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: ألا أدلّكم على هدايا الله ﷻ إلى خلقه؟ قلنا: بلى - قال: الفقير...

(٣) عن حواء قالت سمعت رسول الله ﷺ - يقول:...

(٤) الدر المنثور: ١٧١ - أخرج الخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس أن ميمونة استأذنت رسول الله ﷺ في جارية تعتقها فقال رسول الله ﷺ: أعطها أختك ترعى عليها وصلي بها رحماً فإنه خير لك.